الفصل الثاني

مشروعية الحوار

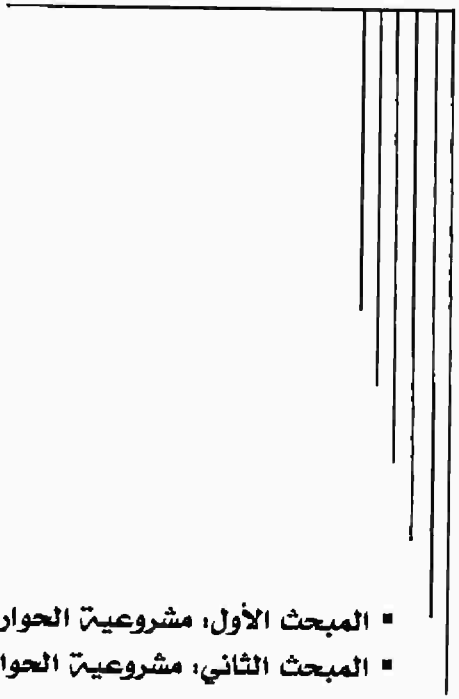

- المبحث الأول: مشروعية الحوار في القرآن الكريم.
- المبحث الثاني: مشروعية الحوار في السنة النبوية.

مشروعية الحوار

المبحث الأول

مشروعية الحوار في القرآن الكريم

تعرضت آيات القرآن الكريم في مواضع شتى للحوار وبأساليب مختلفة(*)، ففي بعض الآيات تظهر الدعوة إلى الحوار، أو إلى شيء من مستلزماته وأصوله، وفي نصوص أخرى حث على التزام آداب عامة للحوار، وفي قسم منها بيان آداب خاصة من آداب الحوار، وفي قسم منها نماذج وأمثلة للحوار.

فمن النصوص العامة التي وضعت مقومات الحوار، وأصوله، وشروط الانتفاع به قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

تأتي هذه الآية ردًّا على المشركين الذين طعنوا في النبي ﷺ دون تدبر أو تفكير فاتهموه بالكذب تارة وبالسحر تارة أخرى كما في الآيات قبلها: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣].

فأقام الله عَزَّوَجَلَّ هذه الموعظة العظيمة التي من أخذها بجميع مقوماتها فلابد أن يصل إلى الحق، وهذه المقومات هي:

١- القيام لله تعالى: ﴿بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ [سبأ: ٤٦] وهو الإخلاص والتجرد في طلب الحق.

(*) لا نجد فائدة من إعادة الحديث عن ألفاظ الحوار في القرآن الكريم مرة أخرى، فقد تحدثنا عنها في الفصل الأول عند تناولنا لمفهوم الحوار وماهيته في القرآن الكريم.

وهذا شرط أساسي لكل عمل، وبدونه يفسد العمل ولا يوفق فيه صاحبه ولا يبارك فيه، فالإخلاص في البحث عن الحق والصدق في طلبه شرط للوصول إلى ذلك الحق.

وعندما يغيب الإخلاص ينعدم الانقياد إلى الحق. ولو كان مثل فلق الصبح؛ لأن من تعلق قصده بغير وجه ربه عَزَّوَجَلَّ، ثقل عليه الانقياد للحق، وقصرت همته عن بلوغه العمل به، وعندما يوجد الإخلاص في القصد والصفاء في النية والتجرد لاتباع الحق، يسهل على صاحبه الانقياد له عند ظهوره، ولو على لسان مخالفه؛ لأنه يعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التمادى في الباطل.

وهذا الأصل يدخل تحته عدد من الآداب مثل تصحيح النية، وحسن الاستماع، والتسليم بالخطأ، والرجوع إلى الحق والتواضع، وتجنب الكذب، والمراوغة، والأمانة، والإنصاف والعدل، والهدوء، وضبط النفس، وعدم الغضب، وتجنب الهزء، والسخرية بالطرف الآخر وغير ذلك.

٢- مراجعة النفس على انفراد أو مع الآخرين: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ [سبأ: ٤٦] والالتزام بهذا الشرط يقضي على عامل مهم من العوامل التي تغطى الحق، أو تشوه وجهه، وذلك في مثل الأجواء الجماعية والجماهير الجاهلة، والتي غالبًا ما تتصف بالغوغائية والتقليد الأعمى، واتباع كل ناعق من رؤوس الضلال؛ مما يؤدي بطالب الحق المخلص إلى اتباع الأكثرية من الناس، متهمًا نفسه، ظانًّا أن الحق مع الأكثرية.

وهذا الأصل أيضًا يدخل تحته عدة أمور تجب مراعاتها، مثل مراعاة الجو المحيط بالحوار، والظروف النفسية والاجتماعية للطرفين، والتعارف قبل الحوار، والتحدي والإفحام، والمحافظة على هدف الحوار والوصول إلى نتيجته وسيأتي تفصيله بمشيئة الله تعالى.

٣- التفكر فيما يقوله المخالف: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ [سبأ: ٤٦] وهذا الأصل هو الوسيلة الأساسية للوصول الى الحق بعد الالتزام بالشرطين السابقين، فالتفكير والعلم وإمعان الرأي هو المتمم لهذا المنهج الإلهي للوصول الى الحق، وتبين الهدى من الضلال، لأن أداة التفكر الأساسية هي العلم بحال القضية المختلف فيها ومعرفة ملابساتها، والمقصود بالتفكر هو

البحث عن الأدلة الشرعية العلمية والتحقق من ثبوتها ودلالتها على المراد، والجاهل بذلك كله لا يستطيع الوصول الى الحق فيوجه التقليد الأعمى دون فكر أو نظر(*).

ويدخل تحت هذا الأصل عدد من الآداب العلمية مثل البيان وحسن العرض والتثبت والتوثيق، والبدء بمواطن الاتفاق، وطلب الدليل والمبادرة به، والتسليم بالحق والبدء بالأهم، وغير ذلك مما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وتظهر أهمية تلك المقومات والأصول في كلام علماء التفسير رحمهم الله تعالى - عن هذه الآية ومن ذلك:

قال الطبري رحمه الله: (وقيل: إنما قيل: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾ وتلك الواحدة أن تقوموا لله بالنصيحة وترك الهوى، ﴿مَّثْنَىٰ﴾ يقول: يقوم الرجل منكم مع آخر فيتصادقان على المناظرة، هل علمتم بمحمد ﷺ جنونًا قط، ثم ينفرد كل واحد منكم، فيفكر ويعتبر فردًا هل كان ذلك به، فتعلموا حينئذ أنه نذير لكم).

ويقول الزمخشري: [والمعنى: إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهي أن تقوموا لوجه الله خالصًا متفرقين اثنين وواحدًا واحدًا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ في أمر محمد ﷺ وما جاء به.

أما الاثنان فيفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه نظر متصادقين متناصفين، لا يميلان إلى اتباع الهوى، ولا ينبض لهما عرق عصبية، حتى يهجم بهما الفكر الصالح، والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه، وكذلك الفرد يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم. والذي أوجب تفرقهم مثنى وفرادى: أن الاجتماع مما يشوش الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من الرؤية ويخلط القول، مع ذلك يقل الإنصاف ويكثر الاعتساف ويثور عجاج التعصب ولا يسمع إلا نصرة المذهب](١).

(*) سيأتي بيان لهذين الأصلين (مراجعة النفس- التفكر التأمل) في الفصل الخامس عند حديثنا عن الحوار مع الذات.

(١) الإمام الزمخشري: الكشاف (٢/٢٩٤).

فظاهر من كلام الطبري، وكذلك الزمخشري: أن الآية فيها دعوة و إشارة إلى المناظرة والمحاورة مع مراعاة الأصول والمقومات التي تحقق الهدف، وتثمر النتيجة، كما أشار غيرهما إلى المعنى نفسه. والمعنى: أن التي أعظكم بها: قيامكم وتشميركم لطلب الحق، وليس بالقيام على الأقدام. والمراد بقوله: «مثنى» أي يجتمع اثنان فيتناظران في أمر رسول الله ﷺ والمراد بـ «فرادى» بأن يتفكر الرجل وحده.

ومعنى الكلام: ليتفكر الإنسان منكم وحده وليخل بغيره، وليناظر وليستشر، فيستدل بالمصنوعات على صانعها، ويصدق الرسول على اتباعه.

والمراد هنا: أنني بخصلة واحدة أشير عليكم بها، وأنصح لكم في سلوكها؛ لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي، ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك وهي: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي تنهضوا بهمة ونشاط وقصد لاتباع الصواب و إخلاص لله، مجتمعين ومتباحثين في ذلك، ومتناظرين، وفرادى كل واحد يخاطب نفسه بذلك حيث يدعوكم دعوة خالصة إلى منهج البحث عن الحق، ومعرفة الافتراء من الصدق، وتقدير الواقع الذي يواجهه من غير زيف ولا خلل: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ...﴾ الآية، إنها دعوة للقيام لله بعيدًا عن الهوى، بعيدًا عن المصلحة، بعيدًا عن ملابسات الأرض، بعيدًا عن الهواتف والدوافع التي تشتجر والتي في القلب، فتبعد به التأثر بالتيارات السائدة في البيئة، والمؤثرات الشائعة في الجماعة، دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط، لا مع القضايا والدعاوى الرائجة، ولا مع العبارات المطاطة، التي تبعد القلب والعقل من مواجهة الحقيقة في بساطتها.

دعوة إلى منطق الفطرة الهادئ الصافي، بعيدًا عن الضجيج والخلط واللبس، والرؤية المضطربة والغبش الذي يحجب صفاء الحقيقة، وهي في الوقت ذاته منهج في البحث عن الحقيقة. منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والغواشي والمؤثرات، وعلى مراقبة الله وتقواه.

وهي: «واحدة» إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق، القيام لله.. لا لهوى ولا لمصلحة ولا لنتيجة ... التجرد.. الخلوص.. ثم التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون.

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾... مثنى ليراجع أحدهما الآخر، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارئ، ولا تتلبث لتتبع الحجة في هدوء.. وفرادى مع النفس وجهًا لوجه في تمحيص هادئ عميق. [﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ فما عرفتم به إلا العقل والتدبر والرزانة. وما يقول شيئًا يدعو إلى التظنن بعقله ورشده إن هو إلا القول المحكم القوى المبين][1].

وبعد هذه الأقوال من هؤلاء المفسرين - رحمهم الله - حول الآية الكريمة، تبين أن القرآن عُنى بموضوع الحوار، وأشار إليه، ووضع أصوله ومقوماته العامة التي ينطلق من خلالها الباحث عن الحق.

وقريب من هذا ما قاله المفسرون في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] حيث قال الطبري رحمه الله: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يقول: وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها، أن تصفح عما نالوا به عرضك من الأذى، ولا تعصه في القيام بالواجب عليك من تبليغهم رسالة ربك][2].

وقال الزمخشري: [﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين من غير فظاظة ولا تعنيف][3].

وقد بين الشوكاني - رحمه الله - أساليب الدعوة المذكورة في الآية حيث قال: [ثم أمر سبحانه رسوله أن يدعو أمته إلى الإسلام فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾، وحذف المفعول للتعميم لكونه بعث إلى الناس كافة، وسبيل الله هو الإسلام ﴿بِٱلْحِكْمَةِ﴾: أي بالمقالة المحكمة الصحيحة.

قيل: هي الحجج القطعية المفيدة لليقين، ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾: وهي المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التي يستحسنها المستمع وتكون في نفسه حسنة باعتبار انتفاع السامع بها.

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن الكريم (٥/٢٩١٤).
(٢) الطبري: تفسير الطبري (١٤/٤٣٥).
(٣) الكشاف: (٢/٤٣٥).

قيل: الحجج الظنية الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة وهما سبيلا الدعوة، ولكن الداعي قد يحتاج مع الخصم الألد إلى استعمال المعارضة والمناقصة ونحو ذلك من الجدل. ولهذا قال سبحانه ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ أي: بالطريق التي هي أحسن طرق المجادلة. وإنما أمر سبحانه بالمجادلة الحسنة لكون الداعي محقًّا وغرضه صحيحًا، وكان خصمه مبطلًا وغرضه فاسدًا][1].

إذن لا تخلو هذه الآية من إشارة عامة إلى قضية الحوار، وتنبيه على ضرورة مراعاة الأدب الحسن فيه، وهنا يقول صاحب الظلال في بيان الآية ما نصه [والدعوة بالحكمة والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبنيه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنوير في هذه الطريقة حسب مقتضياتها، فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة، فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه، وفي الموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية، فإن الرفق والموعظة كثيرًا ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ، وبالجدل بالتي هي أحسن بلا تحامل على المخالف، ولا ترذيل له وتقبيح، حتى يطمئن إلى الداعي، ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدال، ولكن الاقتناع والوصول إلى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى تشعر بالهزيمة، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلًا عن هيبتها واحترامها وكيانها، والجدل بالحسنى هو الذي يشعر المجادل أن ذاته مصونة وقيمته كريمة، وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء إليها في سبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصر رأيه وهزيمته الرأي الآخر][2].

(١) الإمام الشوكاني: فتح القدير (٣/٢٠٣).
(٢) سيد قطب: الظلال (٤/٢٢٠٢)

خصائص الحوار القرآني

للحوار الجيد شروط ينبغي تحققها بداية، ومنها:

١- شموله على أسلوب وصفي جيد.

٢- عدم الاستطراد في تصوير الحوادث استطرادًا مملًّا بعيدًا عن الواقع.

٣- التشويق الذي يدفع بالباحث إلى متابعة الدراسة في لهفة حتى النهاية.

والأسلوب الجيد يتطلب ذوقًا رفيعًا راقيًا لمعانيه ونحن في حاجة إلى تطبيق هذه الشروط على الحوار القرآني كي تتبين سماته وأهدافه.

فمن الثابت البين: أن من لم يحكم فهم القرآن فهمًا صحيحًا لا تتم له فضائل هذا الدين وما فرط المسلمون في آداب هذا القرآن الكريم إلا منذ أن فرطوا في لغته؛ فأصبحوا لا يفهمون كلمه، ولا يدركون حكمه، ولا يقرؤون هذا الكتاب إلا أحرفًا، ولا ينطقونه إلا أصواتًا، وتراهم يرعونه آذانهم وهم بعد لا يتناولون معاني كلام الله إلا من كلام الناس[١].

فالمسلمون الأولون كانت سلائقهم قد سلمت فمكنتهم أن يفهموا كلام الله في يسر، وأن يدركوا ما وراء التراكيب من كوامن الأسرار، وأن يستشعروا سر إعجازه عند سماعه، وأن يستعصموا بعقائدهم على الملحدين.

إذا كان الأمر كذلك فقد نشأت في حجر الإسلام أجيال تصعب عليهم كل ذلك أو تأبى؛ لأن الفطرة الإسلامية قد وهنت في نفوس الناس بما خالطوا وابتعدوا عن موئل السلامة ومعدن الفصاحة، وعزت على غير العرب بما ارتضوا من أفاويق العجمة في البيان لذلك اتجه العلماء إلى أن يربوا في الناس قوة الحس البلاغي، وأن يعودوهم ذوق البيان حتى لا تستغلق عليهم أساليب القرآن[٢].

---

(١) الرافعي: إعجاز القرآن، ص ص ١٠٤ - ١٠٦.

(٢) الخطيب القزويني: مقدمة الإيضاح في علوم البلاغة، ص ٥.

وحوار القرآن يعتمد في طريقة تعبيره عند تنسيق الحوادث على تصوير أبرز المواقف تاركًا بين المشاهد كثيرًا من التفصيلات التي تعمل فيها الذاكرة أو يتصورها الخيال.

وقدرة القرآن الكريم على تجسيم المعاني وتصوير الخواطر وبراعته في العرض والأداء وإعجازه في التعبير المركز القصير المشع بالإيحاءات تبعث الحياة في الحوار وتحوله إلى صور حية، وشخوص متحركة تنبض بالحياة[١].

فحوار القرآن واقعي وأسلوبه حقيقي. ولقد عرف عبد القاهر الجرجاني الحقيقة بأنها: كل كلمة أريد بها ما وضعت له[٢] في وضع واضح وإن شئت فقل في مواضعه وقوعًا لا يستند إلى غيره.

والأسلوب القرآني - بعد هذا العرض لمعنى الحقيقة - أسلوب يعتمد على كثرة الحقائق وصحتها ووضوحها، فالحقائق مع الكثرة والصحة والوضوح تتلون بلون الصورة وتشكل عنصرًا من عناصر الصورة الأدبية، ومن ثم نمطًا جديدًا في مجال الإعجاز القولي.

فأسلوب القرآن في الحوار أن يختار لقطات حية من الوقائع التاريخية، ولا يثقلها بما هو تافه من الجزئيات والتفاصيل التي تصرف الفكر عن التدبر والاعتبار كما يختار الرسام للمشاهد من الأشكال والألوان وما يحقق له الانسجام، إنه يروي بعض أحداث القصة بأسلوب يبعث فيها الحياة فتتخطى القرون ويجعلها كأنها ماثلة[٣] كما في قصة قوم لوط:

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا

(١) محمد شديد: منهج القصة في القرآن، ص ٤٤.
(٢) الإمام عبد القاهر: أسرار البلاغة، ص ٣٠٣.
(٣) التهامي نقره: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٨٧.

عَلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٧٧-٨٣].

الشخصيات في الحوار القرآني:

ويعتبر الحوار الوارد في القرآن أروع وأعظم حوار على وجه الإطلاق، وبه من الإعجاز الفني واللفظي والمعنوي ما أعجز البشر وخبراء لغة العرب على أن يأتوا بسورة من مثله.

وعند الحديث عن الشخصيات والأحداث في القصة القرآنية. يجب أن نلاحظ أن العناصر المألوفة للقصة من أحداث وأشخاص وحوار وارتباط مكاني، وترتيب زماني وعقدة لا نجدها مجتمعة في القصة القرآنية ولا موزعة توزيعًا بل لكل منها دور يختل بانعدامه توازن القصة؛ لأن المقاصد التي يوحي بها السياق هي التي توجه أسلوب العرض وتتحكم في ترتيب الأحداث وتسلط الأضواء على العنصر المراد وتمييزهم إبرازه.(١)

فقد يكون القصد الإنذار والترهيب مثلًا فيبرز عنصر الأحداث(٢) قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٤-٧]

وقد يكون القصد تثبيت الرسول ﷺ والمؤمنين على الذي يدعون إليه. رغم ما يلقون في سبيله من أهوال، فيبرز عنصر الأشخاص وتمييزهم الأحداث التي ألمت بهم وما كانت من عاقبة يطمئن إليها المجاهدون.

قال تعالى: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ

(١) سناء محمود عبد الله عابد: مرجع سابق، ص ٥٦.
(٢) التهامي نقره: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٩٣.

إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود: ٣١-٣٤].

وقد يكون القصد إقامة الحجة والإقناع بحكاية أقوال الخصم أو التعريف بشخصية ما والتعقيب عليها؛ فيبرز عنصر الحوار على طريقة الرواية للأقوال، ومن التعقيب على أقوال الخصم ومحاجتهم هذا الحوار الذي جرى بين نوح وقومه على نحو ما تقدم في سورة هود (٣١-٣٤).

وقد يأتي الحدث والشخصية متساوين في الأهمية فيكمل كل منهما الآخر: ويتناوبان على مركز الاهتمام[1] كما في قصة مولد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ٧-٩].

أما المكان والزمان: فهما عنصران مهمان في الحوار بإلباسهما صورة من الواقع وتشخيصهما للأحداث في جو البيئة التي جرت فيها، وكل ما يتصل بهذه البيئة من ظروف وعادات لها تأثير في أخلاق الأشخاص وتصرفاتهم.

إن الحوار القرآني لا يعنيه من ذكر المكان إلا ما جعلت منه جملة الأحداث المهمة مسرحًا له مثل ذكر مصر في حوار يوسف العزيز والملك وفي غياهب السجن وعلى عرش الحكم[2]. قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [يوسف: ٢١].

كما لا يعنيه من ذكر الزمان تحديد تاريخ الحادثة، ولا مدتها لكن قد يكون في تعيينها أبعاد لقيمة الحادثة نفسها مثل المدة التي نامها أهل الكهف قال تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ [الكهف: ٢٥].

(١) التهامي نقره: سيكولوجية القصة في القرآن، ص ٩٦.
(٢) المرجع السابق، ص ٩٧.

والمدة التي أمات الله فيها الرجل الذي مر على قرية، قال تعالى: ﴿كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وقد نجد الحدث والشخصية مجتمعة مع بعضها أو موزعة:

فنرى عنصر الأحداث: هو العنصر البارز في الحوار الذي يقصد به التخويف والإنذار كما في قصة ثمود في سورتي الشمس والقمر.

وعنصر الأشخاص هو العنصر البارز: إذا قصد الإفاضة والإيحاء أو تثبيت قلب النبي ﷺ فنلاحظ تعدد الشخصيات في سورة الأعراف والشعراء.

الشخصية: ولا نقصد بها الإنسان إنما نقصد كل شخصية وقعت معها أحداث وصدرت عنها عبارات وأفكار أدت دورًا إيجابيًّا في الحوار ومن الشخصيات: شخصية الملائكة والجن والحيوانات والناس مما سنشير إليه إجمالًا فيما يلي:

أما الحيوانات والحشرات:

فقد ذكر منهم القرآن جملة مثل الحمار، والكلب، والبقرة، والغراب. لكن الحوار لم يرد إلا في بعض الطيور والحشرات مثل الهدهد والنملة، ونرى أن القرآن عندما يتحدث عنهم يذكر أن الحيوانات تقوم بما يقوم به الشخص العادي، فقد تحدثت النملة، وتحدث الهدهد كل بلغته وفهمه سليمان لأن الله قد علمه منطقهما، وهذا قد أحدث لبسًا عند البعض مثل الرازي وغيره فأنكروا أن يكون الحوار واقعيًّا أو على الحقيقة، ويبدو أن السبب فيما وقع فيه هؤلاء المفسرون في حيرة هو اضطرابهم بين ما يشاهدون ويلمسون وبين ما يذهب إليه بعضهم في حديث عن عقيدة الخوارق والمعجزات.

والملائكة والجن:

يذكرهم الله سبحانه وتعالى أنهم يجيئون بصورة بشرية فهذا جبريل يأتي مريم بصورة بشر: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ

حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ١٦-١٨] وهذه الملائكة تأتي لوطًا وإبراهيم أضيافًا أي في صورة بشرية أيضًا، وفي كلتا الحالتين يجهل لوط وابراهيم حقيقة ضيوفهما.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٦٩-٧١].

وجاء الملك مريم في زي البشر فاضطربت واستعاذت بالرحمن، وتدخل الملائكة على داود فيفزع ويقوم وهو في المحراب، كذلك عند مجيئهم إلى إبراهيم ولوط جاءوا بصورة بشرية غير معلومة بالنسبة لمن يراهم، وهم يخبرون عن أنفسهم الهدف الذي جاءوا من أجله بصورة أشخاص بشرية.

أما الجن فمنهم مؤمن ومنهم غير مؤمن يتحاورون مع الرسول ﷺ بما يخص الإيمان: ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن: ١٤-١٧].

فهم يشبهون في تصرفاتهم إلى حد كبير البشر لكنهم لا يظهرون عليهم.

الناس: في الحوار القرآني رسل وأنبياء وملوك ووزراء وأناس عاديون، والإنسان له صفات جسمية وله اسم يدل عليه فمن حيث الصفات الجسمية:

١- يشترك الناس جميعًا في أن القرآن لم يقم وزنًا لصفاتهم ومميزاتهم الحسية. فلا طول ولا عرض ولا لون ولا ملامح ولا قسمات من كل تلك التي تميز شخصية عن أخرى نجدها بارزة في الحوارات القرآنية ولنأخذ مثالًا أصحاب القرية، قال تعالى:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ

الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس: ١٣-٢١].

وفي بعض الأحيان فقط نجد: أن القرآن يذكر شيئًا من هذه السمات للضرورة كقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

٢- يهمل القرآن الأسماء إهمالًا تامًّا في الحوار الذي يراد به التخويف والذي يبرز فيه عنصر الحوادث ويخفي ما عداه.. كقوله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

فهنا اختفى الاسم واختفت سمات الشخصية، بينما التركيز على الحدث للعبرة، وهو حينًا آخر يذكر الأسماء ليتمكن القارئ من متابعة الأفكار والوقوف على مجرياتها: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء: ١٠٦ - ١١٠].

فلا حاجة لذكر الأسماء إلا لتمييز أصحاب القصة عن غيرهم مثل أسماء الأقوام أو الأنبياء.

وعلى الجملة: فالذي نستطيع قوله في مثل هذا الحوار الذي يقصد فيه إلى الآراء والأفكار: إن عنصر الشخصية فيه يكاد أن يختفي لولا بعض الأسماء وبعض الصفات، وإن العنصر القوى الذي يسير جنبًا إلى جنب مع الحوار هو الحدث.

والحوار القرآني يعتمد على تنسيق الحوادث وعلى إبراز المواقف والأحداث تاركًا من التفصيلات التي تعمل فيها الذاكرة، أو يتصورها الخيال، وقدرة القرآن على تجسيم المعاني وتصوير الخواطر، وبراعته في العرض والأداء، وإعجازه في التعبير المركز المشع بالإيحاءات وتحوله إلى صورة حية وشخوص متحركة، ومشاهد تنبض بالحياة[1] ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠-١٦].

لقد تنزه حوار القرآن عن أن يقول أي شيء غير ذي بال أو يساق لأى غرض يخالف الأخلاق بل هو مملوء بالعبر والمواعظ التي تقترن بالعرض لذا كان حواره تعليميًّا. والحوار القرآني حوار من نوع خاص. وهو ليس فنًّا خالصًا إنما هو حوار صاغه الله سبحانه وتعالى ليكون مثلًا للناس، وهنا يختلف المؤلفون البشر عما هو تنزيل من عزيز حكيم، فحوار القرآن الكريم بطبيعة الحال لابد أن يكون المثل الأرفع في الخلق والإيمان فإذا نحينا جانب الموعظة التي يحملها القرآن ونظرنا إلى العرض الفني في الحوار القرآني لوجدنا في أغلب الأحيان عجبًا ولا عجب فإنه تنزيل من عزيز حميد.

والحوار الوارد في القصص القرآني أعظم وأروع حوار على وجه الإطلاق وبه من الإعجاز الفني واللفظي والمعنوي ما يجعل أعظم الباحثين يقف مشدوهًا من العجب والإعجاب.

وهكذا يتضح لنا مما سبق:

١- أن حوار القرآن الكريم واقعي يساق للعبرة ولم يأت لمجرد التسلية أو المتعة[2]،

(١) محمد شديد: منهج القصة في القرآن، ص ٤٤.

(٢) محمد أبو زهرة: انظر المعجزة الكبرى (القرآن)، ص ١٦٢ - ١٦٣.

وقد قرر تعالى هذه الحقيقة حيث قال: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

٢- أهمية الحوار في توجيه الدعوة الإسلامية، ذلكم أن واقعية القرآن وجديته يجعلان توجيهاته وتقريراته تعين الدعوة الإسلامية على إصدار مواقف صحيحة ومدروسة تجاه ما تلاقيه. وهذا ما كان يحدث عند نزول القرآن على رسوله الله ﷺ في مكة.

والقلة المؤمنة محصورة بين شعابها، والطريق شاق، طويل. فكان الحوار يكشف لهم نهاية الطريق ويبين لهم معالمه.

إن صدق الحوار فيما قصه الله تعالى من غيب مجهول للنبي ﷺ كان سببًا في إثبات الوحي والرسالة. فما نجده من حوار بين نوح وقومه، وإبراهيم وموسى - عليهم السلام - دليل على صدق الرسالة وإثبات الصلة بوحى الله ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

٣- الحوار القرآني دقيق في رسمه الشخصيات فهو على قلة عدد الألفاظ المستخدمة فيه فإن فيه دقة في رسم ملامح واختيار اللحظة الحاسمة لتوجيه القلب إلى العبرة.

نماذج من الحوار في كتاب الله

من خلال القصص القرآني الذي يشغل مساحة كبيرة من كتاب الله، ومن بين ما نتعلمه من هذا القصص، فضلًا عما يرد فيه من تشريع معجز، يغفل عنه الكثير، نجد نماذج الحوار العفو الكريم.. بين أنبياء الله وأقوامهم، وبين أهل الجنة وأهل النار، وبين أصحاب الحق وأصحاب الباطل. وسوف نختار من بين هذه النماذج العديدة نماذج ثلاثة، ونحيل القارئ إلى كتاب الله يستخرج منه غير ذلك، وما يزال كتاب الله سبحانه وتعالى معطاء على مر العصور، لا تبلى جدته، ولا يخلق على كثرة الرد.

النموذج الأول: بين نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه:

نوح نبي الله ورسوله عَلَيْهِ السَّلَامُ.. من أولى العزم من الرسل. جاء قومه يدعوهم إلى الله ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩، المؤمنون: ٢٣] وهم هائمون في عبادة الأصنام، وكان له جدال مع ابنه، كما كان لإبراهيم جدال مع أبيه.

أما جدال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه: فنأخذ له نموذجًا من سورة هود:

بدأ فدعاهم إلى التوحيد: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥- ٢٦]. فردوا عليه بتهم له ولمن اتبعوه.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

فرد عليهم نوح بأربع: أنه على بينة من ربه عميت أبصارهم عنها، ولن يكرههم عليها. أنه لن يسألهم أجرًا؛ لأن أجره على الله. إنه لن يطرد الذين آمنوا، لأنه يخاف الله، ومن ينصره من الله، وأنه لن يقول لهم لن يؤتيكم الله خيرًا؛ إنه إن فعل ذلك كان ظالمًا، وأخيرًا أنه لا يملك خزائن الله، ولا يعلم الغيب، ولا يدعي أنه ملك[1].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٢٨-٣١] ونصل إلى الإفحام فيقول قومه له:

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ٣٢].

---

(١) علي جريشة: مرجع سابق، ص١٣٦.

فيرد نوح على ذلك: ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ [هود: ٣٣-٣٥].

وتأتي العاقبة في النهاية بعد استهزائهم منه وهو يصنع الفلك ...

وقبل أن يشير إلى العاقبة يشير إلى حواره مع ابنه، ويليه حواره مع ربه. أما حواره مع ابنه فقد قال له: ﴿ ... يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [هود: ٤٢].

فكان رد ابنه الجاهل أنه سيعتصم بالجبل ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ [هود: ٤٣] فجاء رد الوالد الناصح الأمين ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ﴾ [هود: ٤٣].

ولم يستطع الابن جوابًا فقد تاه جوابه مع أمر الله الذي جاء ﴿ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود: ٤٣].

وانتهى المشهد الأليم للأب يشهد مصرع ابنه فتأخذه الشفقة بولده ويخاطب ربه.

حواره مع ربه: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [هود: ٤٥] وكان قد صدق وعد الله ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ... ﴾ [هود: ٤٠] وهنا تتقرر القاعدة الربانية التي تفصل بين الكفر والإيمان، ويأتي معها التوجيه والتأنيب: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ [هود: ٤٦] ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦].

وهنا يعود العبد الأواب إلى ربه يسأله المغفرة والرحمة في تذلل وخضوع: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧].

النموذج الثاني: أهل الجنة وأهل النار:

في الحوار أطراف ثلاثة: أهل الجنة، أهل النار، أصحاب الأعراف «على اختلاف في كنههم».

■ يبدأ الحوار بأصحاب الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

■ ثم يتوجهون إلى أصحاب النار: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٥].

■ وهنا يظهر صوت أصحاب الأعراف متوجهين لأصحاب الجنة: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦].

■ ثم ينتقل الحوار إلى أصحاب النار: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٧-٤٩].

■ وتأتي خاتمة الحوار ندمًا يوم لا ينفع الندم: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ...﴾ [الأعراف: ٥٠].

ويأتي التبكيت من أهل الجنة مع الحرمان أليما أليما أليما ﴿... قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥٠-٥١].

النموذج الثالث: مؤمن آل فرعون:

وهو نموذج يتكرر. إذ فرعون يتكرر ... ومعه قائم لله بحجة، لا يخشى في الله لومة لائم، يكتم إيمانه.. حتى إذا وجد الباطل يهم أن يبطش بالحق صار سكوته إثمًا، وصار أمره ونهيه. وقوله الحق واجبًا.

يبدأ فرعون فيتهم «موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ» بالسحر والكذب، ويأمر بقتل الأبناء، واستحياء النساء. ثم يمضي إلى موسى نفسه فيأمر بقتله لأنه يخشى أن يبدل دين قومه أو أن يظهر في الأرض الفساد.

ويستعيذ موسى بربه من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

ويهم فرعون اللعين بالتنفيذ، فينهض المؤمن الذي يكتم إيمانه ليلقنهم دروسًا، وليقول كلمة الحق، وليجادلهم..! ولنستمع إلى الآيات:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر: ٢٣-٣٣].

وكانت النتيجة بعد هذا الحوار الكريم والدعوة الطيبة وكلمة الحق: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

المبحث الثاني
مشروعية الحوار في السنة النبوية

إن المتأمل في أحاديثه الشريفة ﷺ يجد أن الجانب الحواري أساسي في مادة كلامه الشريف ﷺ، حيث كان يتخذ من الحوار سبيلًا إلى تعليم أصحابه الكرام أحكامًا جديدة، أو أن الصحابة يسألونه ﷺ كي يتعلموا منه، وكي يفضي الحوار إلى معلومة جديدة.

ففي جميع أبواب الحديث الشريف: الذكر، والدعاء، والأخلاق، والعبادات والمعاملات، ومن قبل في أمور العقيدة والقضاء والقدر نجد البحث عن المعرفة أمرًا أساسيًّا في محاورة الصحابة إياه ﷺ، أما هو ﷺ فهو حريص على إكسابهم المزيد من المعرفة، ومن هنا كان يتخذ من الحوار والسؤال والمناقشة مجالًا يتوصل الصحابة من خلاله إلى اكتساب هديه الشريف بسهولة ويسر.

حوارات من السنة المشرفة:

سجلت كتب السنة النبوية تساؤلات متعددة وقعت من الصحابة لرسول الله ﷺ، تتعلق بقضايا العقيدة الكبرى وبدء الخلق، والقدر، والتشريعات، والعبادات. وعلى سبيل المثال:

١- السؤال حول العقيدة:

عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: دخلت على النبي ﷺ، وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم فقال: اقبلوا البشري يا بني تميم.

قالوا: قد بشرتنا فأعطنا (مرتين).

ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال: اقبلوا البشري يا أهل اليمن أن لم يقبلها بنو تميم.

قالوا: قد قبلنا يا رسول الله.. جئنا نسألك عن هذا الأمر.

قال: كان الله ولم يكن شيء غيره.

وكان عرشه على الماء.

وكتب في الذكر كل شيء.

وخلق السموات والأرض.

قال عمران: فنادى مناد، ذهبت ناقتك يا ابن الحصين، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب، فوالله لوددت أني كنت تركتها.

ففي هذا الحديث يقص عمران بن حصين مشهدًا في حضرة رسول الله ﷺ، لقد دخل عليه بنو تميم فقال لهم اقبلوا البشري أي هلموا أعلمكم عملًا صالحًا يصل بكم إلى الجنة ويحقق لكم السعادة الأبدية، لكن القوم ظنوا البشرى مالا ومآكل ومشارب فطلبوا العطاء العاجل وألحوا في سؤاله.

وفي هذه الأثناء دخل قوم آخرون جاءوا من أجل الهدف السامي والاستقامة على الحق، فبدأ الرسول ﷺ يشرح الحق، ويبين بدء الخلق ويجيب على تساؤلات القوم.

وعن الزهري قال:

أخبرني أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر، فلما سلم قام على المنبر، فذكر الساعة، وذكر أن بين يديها أمورًا عظامًا، ثم قال: من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل عنه؛ فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا..

قال أنس: فأكثر الناس البكاء، وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول: سلوني، فقام إليه رجل فقال: أين مدخلي يا رسول الله؟

قال: النار.

فقام عبد الله بن حذافة

فقال: من أبي يا رسول الله؟

قال: أبوك حذافة..

قال أنس: ثم أكثر رسول الله ﷺ أن يقول: سلوني.. سلوني.. فبرك عمر على ركبته فقال: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولا.

فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك ثم قال:

«والذي نفس محمد بيده لقد عرضت على الجنة والنار آنفًا في عرض هذا الحائط: وأنا أصلي، فلم أر كاليوم في الخير والشر».

ومعنى هذا الحديث: أن النبي ﷺ أخذ يحث الناس على التساؤل عما يعن لهم من أمور الدين وعقائد الإسلام وحقائق الوجود، لكن البعض أخذ يسأل استهزاء أو تعجيزًا أو لهوًا.

حتى سأل أحدهم عن مصيره في الآخرة أفي الجنة أم النار؟

وسأل أحدهم عن حقيقة نسبه إلى أبيه.

وهنا أدرك عمر بن الخطاب بفطرته ونقاء سريرته وصدق عقيدته أن الأمر بدأ يأخذ مسلكًا غير طبيعي فجثا على ركبته وقال: رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولا[1].

٢- نماذج الحوار في القضاء والقدر:

أخرج البخاري في صحيحه بسنده أن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي ﷺ ليلة فقال: ألا تصليان؟ فقلت: يا رسول الله أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا.

فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع شيئًا ثم سمعته وهو يضرب فخذه، يقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

لقد حرص الرسول الكريم ﷺ على إيقاظ ابنته وزوجها لصلاة الليل؛ حتى يتعرضا لنفحات الله، ويحصلا على الثواب الجزيل الذي أعده الله للمستغفرين بالأسحار.

(١) محمد سيد أحمد المسير: الحوار بين الجماعات الإسلامية، القاهرة، دار الطباعة المحمدية، ١٩٧٧، ص١٠١.

واعتذر علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالقدر وقال: يا رسول الله أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا.

وبمجرد أن سمع الرسول الكريم ﷺ هذا الاعتذار لم يراجع عليًّا بشيء، وإنما خرج متعجبًا وهو يتذكر الآية الكريمة: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال- إن سول الله ﷺ «خرج على الصحابة وهم يتنازعون في القدر، هذا ينزع آية، وهذا ينزع آيه فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان فقال:

بهذا أمرتم - أو بهذا وكلتم - أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟! انظروا إلى ما أمرتم به فاتبعوه وما نهيتم عنه فاجتنبوه».

وفي موقف آخر تساءل الصحابة في أمر القدر «وجاء في صحيح مسلم أن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكث[1] بمخصرته ثم قال: ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة، فقال رجل: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، وأمَّا من كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، قال: أمَّا أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة، فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

وتعدد تساؤل الصحابة في هذا الأمر، فجاء سراقة بن مالك وقال: يا رسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم وقد جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما نستقبل؟

(١) المخصرة - بكسر الميم - ما أخذه الإنسان بيده واختصر من عصا صغيرة وعكاز صغير وغيرها، ونكس - بتخفيف الكاف وتشديدها - لغتان فصيحتان أي خفض رأسه، ونكث أي خط خطا يسيرًا مرة بعد مرة.

وقال رجل: يا رسول الله أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال: نعم قال: ففيم يعمل العاملون؟

وجاء رجلان من مزينة فقالا: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشيء قضى عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبت الحجة عليهم؟

وكانت إجابة رسول الله ﷺ في كل هذه الأحوال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له.

ومع كل هذه التساؤلات والمناقشات لم يكن الموقف يمثل ظاهرة فكرية قلقة ولا اتجاها دينيا متحزبا، وانتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى والأمة مجتمعة على صفاء الفهم لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٣- كما أن الحوار كان له مردود عظيم في الجانب التشريعي والعبادات:

عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ فَقَالَ يَا مُعَاذُ هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا».

ويستفاد من هذا الحديث وقوع اجتهاد الصحابة في زمن النبي ﷺ وأن المجتهد لا لوم عليه إذا بذل وسعه وإن لم يصب الحق، وأنه إذا عمل بالاجتهاد لا تجب عليه الإعادة».

وفي صحيح البخاري عن طريق عكرمة عن ابن عباس:

أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: البينة أو حد في ظهرك.

فقال يا رسول الله إذا رأي أحدنا مع امرأته رجلًا ينطلق يتلمس البينة؟ فجعل النبي ﷺ يقول: البينة أو حد في ظهرك.

فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، ولينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد.

فنزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فأنزل الله ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [النور: ٦-٩].

إن الله تعالى جعل حد القاذف بالزنا ثمانين جلدة ما لم يأت بأربعة شهداء لكن ما الحكم إذا قذف الرجل زوجته أيخرج يلتمس البينة فيكون المشهد قد انتهى أم يسكت ويكون ديوثًا؟

لقد جاء هلال بن أمية بتهم امرأته بالزنا ولم يكن أمام الرسول ﷺ بد من بيان حكم القذف العام الذي نزلت به الآيات، وظل الرجل يجادل رسول الله ﷺ حتى نزل الوحي يستثني الأزواج من هذا الحكم العام، ويجعل لهم حكمًا خاصًا هو اللعان.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت:

تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وتقول:

«يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدى ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الآيات ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ [المجادلة: ١]. وهو أوس بن الصامت.

إن الظهار كان طلاقًا في الجاهلية، وكان أوس بن الصامت شيخًا كبيرا ساء خلقه، فظاهر من امرأته خولة بنت ثعلبة، فجاءت تلتمس الفتوى من رسول الله ﷺ فقال لها: قد حرمت عليه، لكن المرأة كانت في حاجة إلى زوجها أبي أولادها وعائلها وقالت: إن لي منه صغارًا إن ضممتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليَّ جاعوا. وظلت تجادل رسول الله ﷺ وتقول إنه لم يذكر طلاقًا، حتى نزل الوحي بحكم جديد هو أن الظهار ليس طلاقا وإنما فيه كفارة عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكينًا على هذا الترتيب.

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة بالمدينة فاستقبلنا أحد فقال: يا أبا ذر، قلت: لبيك يا رسول الله فقال: ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهبا، تمضي عليَّ ثلاثة أيام وعندي منه دينار، إلا شيء أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا

وهكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله وعن خلفه، ثم سار فقال: إن الأكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا هكذا هكذا، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه، وقليل ما هم».

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فأصلي أبدًا.

وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر.

وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا.

فجاء رسول لله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وبعد تناولنا في هذا الفصل لمشروعية الحوار في القرآن الكريم والسنة المشرفة، وما قدمنا من نماذج لهما، وبيان خصائص الحوار القرآني والنبوي؛ فإننا نتحول إلى إلقاء الضوء حول بعض المفاهيم والموضوعات المتعلقة بالحوار ومنهجيته وموضوعات الحوار وآدابه وذلك في الفصل الثالث بحوله تعالى.